ألانساق الدلالية

المحاضرة الثالثة

تهتم السيميائيات بدراسة الأنساق الدلالية؛ أي مجموع العلامات التي تنسج فيما بينها شبكة من العلاقات الاختلافية والتعارضية حتى تضطلع بتأدية وظائف دلالية متميزة بين مرسل ومتلق. ويقسم روسي –لاندي هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين، هما :

أ) أنساق دلالية طبيعية: وهي تلك الأنساق التي توجد في الطبيعة. وتتسم بكونها غير مؤسسية، إلا أن الإنسان وظفها داخل مملكة العلامات؛ أي إنه أسند إليها دلالات مخصوصة.

ب) أنساق دلالية اجتماعية: وهي تلك التي تمتاز بكونها مؤسسية؛ أي قائمة على نوع من المواضعة الاجتماعية، لأنها من نَتاج عمل الإنسان. وقد قسمها روسي-لاندي إلى صنفين، هما :

*أنساق دلالية اجتماعية لفظية: ويعرفها الرجل بأنها "تلك الأنساق التي لها لغات ولها خصوصياتها المتنوعة وإعدادات مثل الأنواع السننية. وتقوم هذه الأنواع السننية على التمييزات التي يحدثها الإنسان في مادة الصوت."

*أنساق دلالية اجتماعية غير لفظية: ويعرفها بقوله: "تلك الأنساق التي لا تستعمل أنواعا سَننية قائمة على أصوات متلفَّظ بها، ولكنها تستعمل أنواعا سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء."

وقد قسم إيكو الأنساق الدلالية إلى ثمانية عشر نوعا بالاستناد إلى معيار ثقافي محض. فالأنساق –في نظره- كلها ثقافية، ترتب انطلاقا من أقلها ثقافيا إلى الأشد تعقيدا. وأول هذه الأنساق التواصلية ما أسماه إيكو "سيميوطيقا الحيوان(**Zoosémiotique**) "؛ وهي تعنى بالسلوكات المتصلة بالتواصل داخل الجماعات غير الإنسانية. في حين تعد الخطابة **(La rhétorique)** آخر هذه الأنساق وأكثرها تعقيدا من الناحية الثقافية .

وإذا كان إيكو قد فصل القول في الأنساق الدلالية وأفاض في تفريعاتها، فإن مدرسة طارتو **(Tartu)** السوفياتية قد اقتصرت على تقسيم هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين، هما :

*أنساق مُنَمْذِجة أولية **:(Systèmes modelants primaires)** وهي الأنساق اللفظية.

*أنساق مُنَمْذِجة ثانوية **:(Systèmes modelants secondaires)** وهي مبنية على الأنساق الأولى. وتُدْرَج ضمن هذه الأنساق الأساطير والدين والشعر والفنون بعامة.

ولعل أشهر التقسيمات وأجودها ذلك التقسيم الذي قدمه ميتز، حين قسم السيميوطيقا إلى لفظية **(Transverbale)** وغير لفظية **.[24](Non-verbale)** ونجد الشيء نفسَه عند برنارد توسان **(Bernard Toussaint)**التي قسمت السيميولوجيا إلى لسانية وغير لسانية... وبصورة أجلى، فإن العلامات نوعان، هما :

أ- العلامات اللسانية (أو اللفظية): ويقصد بها الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف **(Graphèmes)** بأي لغة كانت .

ب- العلامات غير اللسانية (أو غير اللفظية): وهي التي تقوم على أنواع سننية أخرى غير الأصوات والحروف. ويمكن أن نقسمها إلى علامات عضوية مرتبطة بجسم الإنسان (مثل: حركات الجسم وأوضاع الجسد والعلامات الشمية والسمعية والذوقية...)، وعلامات أدَاتية **(Instrumentales)** تحيل على أشياء خارجة عن العضوية الإنسانية (مثل: الملابس والموسيقى وإشارات المرور.(...

وعادة ما تُعْطَى الأولوية للعلامات اللسانية التي تقوم على اللغة **(Langage)** أو الكلام **.(Parole)** يقول سوسير: "فاللسان (أي اللغة) عبارة عن نسق من العلامات التي تعبر عن الأفكار. ومن هنا، يمكن مقارنته بالكتابة وبالأحرف الأبجدية عند المصابين بالصمم والخرص، وكذلك مقارنته بالطقوس الرمزية، وبأشكال الآداب وسلوكها، وبالإشارات المتعارَف عليها عند الجنود، وغير ذلك. إلا أن اللسان هو أهم هذه الأنساق

جميعا"[٢٥]. ويعتبر يوري لوتمان **(Iouri Lotman)** نسق اللغة هو النسق الأولي، في حين يجعل كل الأنساق الدلالية غير اللغوية ثانوية. معنى هذا أن ثمة هرميةً في الأنساق الدلالية، بحيث تفضَّل الأنساق السيميوطيقية اللغوية / اللسانية على غيرها من الأنساق. وذلك لاعتبارات ثلاثة على الأقل؛ أولها أن اللغة هي النسق الدلالي الذي حظي بعناية كبرى، إذ احتفل به الدارسون احتفالا واسعا، وعالجوه من شتى زواياه (أصوات، صرف، تركيب، دلالة)؛ مما جعله مستوْعِباً –في دلالته- مختلِفَ الأغراض والحاجات الاجتماعية للإنسان. ويكمن الاعتبار الثاني في كون المادة الأولية التي تتشكل منها اللغة (وهي الأصوات) عبارة عن أشياء ينتجها جسم الإنسان. فهي –إذاً- داخل الجسم وخارجه. وعليه، فهي ذات طابع شمولي. ويرتبط الاعتبار الثالث بالسيطرة والتوجيه الإيديولوجيين. ذلك بأن اللغة –من بين كل الأنساق- أداة متميزة في يد السلطة. وبما أن العمل نوعان؛ فكري ويدوي، فقد تعارضت الأنساق اللسانية مع غير اللسانية؛ فمثلت الأولى الجانب الفكري ومثلت الثانية الجانب اليدوي. مؤدَّى هذا، أن من يمتلك اللغة هو من يمتلك الفكر وحق التوجيه والسيادة، ومن يمتلك الأنساق الأخرى هو من لا يمتلك غير واجب التنفيذ... ومهما كان الأمر، فإنه يمكن أن نلمس صلاتٍ بين اللغة وغيرها من الأنظمة السيميوطيقية. ومن المؤكَّد أن لكل من النسق اللفظي والنسق غير اللفظي أهميته التي لا سبيل إلى إنكارها.

العلامة وطبيعتها في التراث العربي:

ولاً: العلامة في التراث:

يبدو البحث في هذا الموضوع مثيراً للجدل، لما يتضمنه من مفارقة؛ لأن علم العلامات أو علم السيمياء – كما يسمى اليوم- علم حديث، يزعم لنفسه القدرة الكاملة على دراسة أنظمة العلامات التي ابتكرها الإنسان. فكيف نربط بين هذا العلم الحديث، وبين ما هو موجود في التراث العربي؟ وما جدوى هذا الربط؟ أهي نزعة تأصيل التراث تدفعنا لذلك؟ أم هي صيحة جاءتنا من غيرنا جعلتنا نعود إلى تراثنا لعلنا نجد فيه ما يشبه هذا العلم الوافد إلينا من الغرب؟.هذه الأسئلة وغيرها مما يدور في فلكها تحتاج إلى مواجهة، وإلى عودة إلى التراث قصد تفهمه وتحليله وتقويمه.إن الموروث الفكري العربي لا يعدو أن يكون في كنهه مخزوناً علمياً أو ثقافياً، يظهر في شكل نظام من العلامات الدالة. وتتجلى سيميائية هذا النظام في إطاره اللغوي والثقافي والحضاري.وقد تبلور علم السيمياء على يد علماء الأصول والتفسير والمنطق واللغة والبلاغة. وكان الباحث والموجه للدرس السيميائي هو القرآن الكريم؛ إذ منذ نزوله كان التأمل في العلامة بغية اكتشاف بنيتها الدلالية. فقد أرشد القرآن الكريم في مواضع عدة إلى تدبرها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾. الرعد، ٤. وقوله: ﴿وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون﴾. النحل، ١٦.

ففي هذا التوجيه الرباني كان التعامل مع العلامة قصد فهم دلالته الروحية والعقلية والكونية، والاستدلال بحاضرها على غائبها. يقول القاضي عبد الجبار: "إن من حق الأسماء أن يعلم معناها في الشاهد ثم يبنى عليه الغائب وقد أشار إلى هذا المعنى –كذلك- الراغب الأصفهاني، وذلك حينما تحدث عن الفقه، فيقول: "إن الفقه هو معرفة علم غائب بعلم شاهد"(١٧).

١. فمن هذه الوجهة تعامل العلماء مع العلامة من حيث هي علامة تدل على حقيقة حسية حاضرة تحيل إلى علامة دالة على حقيقة مجردة غائبة.

ثانيا : ماهية العلامةعند العلماء العرب

الواقع أن دراسة نظام العلامات قديم قدم الحياة نفسها، ولكن المنطلقات النظرية لهذه الدراسة اختلفت من عصر إلى عصر، ومن أمة إلى أخرى، وذلك لاختلاف الحقب التاريخية، واختلاف الحضارات. وقد وصلت بعض الأفكار السيميائية من حضارات قديمة كالحضارة اليونانية والعربية، إلا أن تلك الأفكار السيميائية ظلت في إطار التجربة الذاتية، ولم تدخل في إطار التجربة العلمية الموضوعية فقد رأى الباحثون أن القدامى من عرب وعجم اهتموا بهذا الجانب من علوم اللسان منذ أكثر من ألفي سنة. فقد أفرد الفيلسوف أفلاطون بالتأليف. وأكد أن للأشياء جوهراً ثابتاً، وأن الكلمة أداة التعبير عن الحقيقة، وبذلك يتم تبين الكلمة وحقيقتها الدالة عليها، أي: بين الدال والمدلول، أو المبنى والمعنى تلاؤم طبيعي. فلهذا كان اللفظ يعبر عن جوهر الأشياء، وكانت الكلمة تظهر أول ما تظهر في وسط بدائي، وهذا ما حدا بسقراط إلى القول بأن المجتمع البدائي هو المنبع الأصيل للكلمة. وقد أشار أفلاطون إلى ما تمتاز به أصوات الكلمة من دلائل، أي العلاقة الطبيعية مع المدلول، ولذلك كانت الأصوات اللغوية أدوات للتوصيل عن معان عدة كالحركة والخفة والاضطراب والخوف والطموح والعظمة والاستبطان وغير ذلك من المعاني

وإذا كانت السيمياء تتناول العلامة، فقد اهتم الدارسون العرب القدامى بتعريفها. ويتقارب مفهومها عندهم مع مفهوم السمة والأمارة والأثر والدليل. فكل ذلك يتعلق بالدلالة. وهي في اعتقادهم "كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر. يقول أحمد بن فارس حين كلامه عن مادة (دلّ): ".. أصل يدل على إبانة الشيء بأمارة تتعلمها، والدليل الأمارة في الشيء ويقول أبو هلال العسكري في هذا الأمر حين كان بصدد الحديث عن العلامة والدلالة: "يمكن أن يستدل بها، أَقَصَدَ فاعلها ذلك، أم لم يقصد، والشاهد أن أفعال البهائم تدل على حدثها، وليس لها قصد إلى ذلك.. وآثار اللص تدل عليه، وهو لم يقصد ذلك، وما هو معروف في عرف اللغويين يقولون استدللنا علينا بأثره، وليس هو فاعل لأثره من قصد

هذه إيماءة من أبي هلال إلى إشكالية القصدية في العلامة، وهي الإشكالية التي تعد في الفكر السيميائي الحديث، موضوع نقاش بين اتجاهين: اتجاه يؤكد على الطبيعة الإبلاغية التواصلية للعامة، ويمثل هذا الاتجاه كل من مونان، ومارتيني، وبرييطو في الفكر السيميائي الفرنسي. وهم يعتقدون أن العلامة تتألف في أساسها من دال ومدلول وقصد. واتجاه آخر يركز على الجانب التأويلي للعلامة، أي من حيث إمكانية العلامة للتأويل بالنسبة للمتلقي. ويمثل هذا الاتجاه رولان بارت الفرنسي، وهو اتجاه يوصف بالسيميائية الدلالية.

نجد هذا التصور نفسه للعلامة عند الراغب الأصفهاني، إذ يقول: "الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالات الإشارات والرموز والكتابة، وسواء أكان ذلك بقصد من يجعله دلالة، أم لم يكن يقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي ويستشهد الأصفهاني على تصوره هذا بما ورد في قوله تعالى: ﴿ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسأته﴾ سبأ، فالراغب بهذا المفهوم للدلالة يوسع المجال التطبيقي الإجرائي للعلاقة لتشمل أنماطاً سيميائية، هي: (الألفاظ، الإشارات، الرموز، الكتابة، الهيئة). ثم يركز على مسألة الدلالة القصدية وعدمها في العلامة، وقد كان مدركاً عندما جسد ذلك بصورة سيلمان –عليه السلام- كما ورد في الآية الكريمة –حيث ظل بعد وفاته عاماً منتصباً ومستنداً على منسأته (عصاه). هذه الهيئة أو النصبة كما يسميها الجاحظ أوّلها الجن بدلالة

الحياة، لذلك كانت تعمل، وكأنها مأمورة. وبالتقادم الزمني أكلت الأرضة منسأته، فخر ساقطاً، وهذه الهيئة هي علامة موت وفناء، وهذه الصورة التي مثل بها الأصفهاني تنطبق على أي هيئة.

يتضح مما سبق أن التأويل وجد طريقه في الدراسات العربية، وبخاصة في الدراسات القرآنية، وقد اتسعت دائرته لدى الشيعة والمتصوفة والفلاسفة والمعتزلة وإخوان الصفا.. واتخذ بعضهم المصحف جلّه موضع تأويل، رغم اختلاف مستويات خطاب النص القرآني. وانتقى آخرون نصوصاً تخدم مقاصدهم المختلفة، إلا أنه يمكن القول: إن المفسرين على اختلاف مشاربهم استثمروا النصوص الوارد فيها التشبيه بكيفية صريحة أو مجازية.

ولم يقتصر منظور القدامى لمفهوم العلامة التأويلية على النص القرآني، وإنما تجاوز إلى كل ما له علاقة بالعمل الأدبي، فقد تعاملوا مع الإشارة الموحية، وهو نوع من الأساليب البلاغية التي تخرج إلى المعنى المجازي.